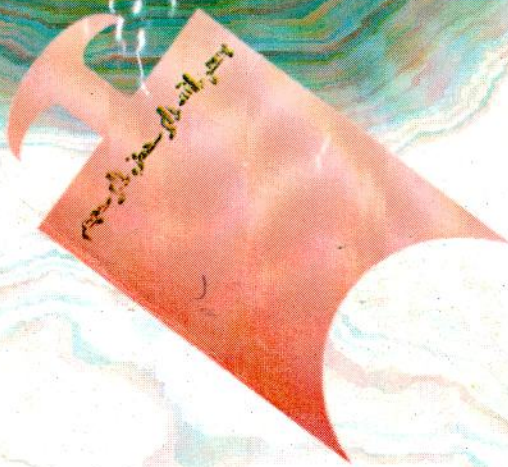


اللسان

مجلة اللغة العربية والدراسات الإسلامية



يصدرها:

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
جامعة ميدغري

اللوحي

مجلة اللغة العربية والدراسات الإسلامية

المجلد الثاني، العدد التاسع

يوليو 2011 م



جامعة ميدغري، ميدغري

ولاية برنو - نيجيريا

مطبعة الممتاز التجاري، ميدغري ولاية برنو

08035618331, 08079707484, 08061593238

الانحياز (النفسي) في النقد (العربي) (الشعبي)



الدكتور خليل الله محمد عثمان بودوفو

قسم الدراسات العربية

جامعة الورن

Khalilulahgbodofu@yahoo.com

المقدمة

يمكننا أن نقول إن المصطلحات النقدية المنتشرة اليوم أمثال: النفسي، والتكاملي، والتناص، والظاهرانية، والسردية ونحوها لم تكن معروفة في النقد العربي القديم، وقد بذل العرب جهدا كبيرا في وضع هذه المصطلحات وبيانها بعد أن تنوعت العلوم، واتسعت الفنون، وكان للمجامع العلمية واللغوية في الوطن العربي دور كبير في نمو هذه المصطلحات وتطورها، وقد اهتم مجمع العلم في العراق ودمشق والقاهرة بوضع عدد كبير من المصطلحات العلمية والفنية، سوى أن عناية تلك المجامع بالفاظ الحضارة أكثر من عنايتها بالفاظ النقد الأدبي، بحجة أن الحضارة تتصل بحياة الناس اتصالا وثيقا، ونظرا إلى هذه الظاهرة ذكر الباحثون أطرافا مما دفع المجامع العلمية إلى إهمال المصطلحات النقدية، منها: الأول: أن النقد الأدبي ليس مما يؤثر في اللغة واتجاهاتها كما تؤثر العلوم المستحدثة ومصطلحاتها، ولذلك لم يكن هناك خشية من المصطلح الأجنبي أو المعرب ما داموا قليلين، الثاني: إن النقد ليس مما يتصل بالتقدم العلمي الذي يشهده العالم، وأن الحياة الجديدة تفرض الاهتمام بالعلوم: الثالث: إن الأدباء والمؤلفين شرعوا في وضع المصطلحات النقدية منذ عهد مبكر، واتفقوا على كثير منها، وشاع استعمالها بين الناس.

يبدو أن أمثال هذه الأفكار من العوامل الهامة التي دفعت بعض الباحثين إلى إهمال المصطلحات النقدية قديمها وحديثها وفي لقد ساعدت هذه

المصطلحات في تطور النقد العربي الحديث، وهذه المقالة سنلقى ضوءاً على معنى المنهج النفسي، مشيراً إلى ما قيل حوله، ونذكر مكانته عند النقاد العرب القدامى والحديثين، ثم ننظر إلى أثر المنهج النفسي في النقد العربي النيجيري.

نظرة إلى المنهج النفسي

يتم المنهج النفسي بدراسة العمل الأدبي منذ بدايته حتى نهايته. ذلك لأن النقاد والباحثين أدركوا إصراف القائمين على المنهج التاريخي بتطبيقهم القوانين الطبيعية على الأدب، وأحسوا أن تطبيق هذه القوانين الجبرية عليه يفسد الذوق، فاتجهوا بالبحث الأدبي اتجاهاً جديداً، يتم بدراسة الأدب والأدباء عن الجوانب أو القيم النفسية التي يحتوي عليها، ويسمى هذا الاتجاه المنهج النفسي².

ويقارب عمر هذا المنهج حوالي مئة عام، فقد بدأت نشأته على يد الطبيب فرويد 1939م، وكان طبيباً نفسياً يعالج المرضى المصابين بأمراض نفسية مختلفة، وقد كان يستعين بالأدب في دراسة النفس البشرية، وفي علاج مرضاه، وفي توضيح بعض الآراء والأفكار التي كان يطرحها، ولا سيما ما يتعلق "باللاوعي" الذي عده المخزن الخلفي - غير المظاهر للشخصية الإنسانية والمتضمن للعوامل الفعالة في السلوك وفي الإبداع وفي الإنتاج³.

ويرى بعض الباحثين أن "كولريديج" كان أول من أشار إلى هذا المنهج عند ما يتحدث في كتابه "سيرة أدبية" الذي نشره عام 1817م، عن الشعر والعلم، وفرق بينها وبين دور العاطفة في الشعر، وتنبه إلى نظرية (اللا شعور) التي يحتاز فيها الشاعر حدود العقل الواعي⁴. إلا أنه يبدو أن كولريديج لم يصطبغ ذلك المنهج بصبغة علمية ملموسة، حتى جاء بعده "فرويد" وأثر فيه كثيراً. ولا شك أنه بمرور الزمان قوى تأثير هذا المنهج في الأدب والنقد، فانضم إليه بعض النقاد والدارسين فصاروا أتباعاً لفرويد، منهم من وافقه ومنهم خالفه وانشق عليه، ومن أتباعه المشهورين "أوتورانك" فقد اعتنى بالدراسة النفسية للفنان المبدع، وطبق عقدة "أوديب" على بعض أعمال "شكسبير" وكان يرى أن الفنان يهرب في آثاره من الواقع إلى عالمه الخيالي⁵.

ن بودوفو

Khalilu

النفسي،
ة في النقد
لأنها بعد أن
طن العربي
ق ودمشق
عناية تلك
ضارة تتصل
إفا مما دفع
ي ليس مما
ك لم يكن
النقد ليس
الاهتمام
ة منذ عهد
بعض
عدت هذه

ومنهم "شارل بود وران" و "رينيه لافورج" و "إدلر" الذي تحدث عن عقدة النقص لدى الأديب أو الفنان، ومنهم يوج ونحوهم. ولقد ذهب الباحثون إلى أن أعلام هذا المنهج هم: "فرويد" و "إدلر" و "يوج" وإن تباينت وجهات نظر هؤلاء في تفسير معنى الأدب والنقد، ولكنها في النهاية لا تخرج عن دائرة النفس الإنسانية، وما يعتريها من أحوال، ويطرأ عليها من تغير.

أبرز الآراء النقدية للمنهج النفسي.

لهذا المنهج مجموعة من الآراء والقواعد التي تحتكم إلى مقررات الأطباء

والعلماء النفسيين ومن أبرزها ما يأتي.

١- إن العنصر النفسي عنصر أصيل في العمل الأدبي، فهو تجربة شعورية.

بل هو استجابة لمؤثرات نفسية معينة، فهو صادر عن مجموعة القوى

النفسية المختلفة^٦.

٢- يزعم النفسانيون - أو بعضهم - أن هناك علاقة بين الفن والمرض

العصبي، وأن الفنان إنسان غير سوي مريض مصاب بالعضاب، محتل

الاعتزان، وأن الفن نتاج جانبي لهذا المرض والاختلال، وهو هترات غير

الأسوياء^٧.

٣- الأدب وليد اللاشعور، وهو عند فرويد تعبير عن اللاوعي الفردي،

ولكنه عند "يوج" تعبير عن اللاوعي الجمعي، وهو يرى أن اللاشعور

مستقر يحتفظ فيه العقل بماضي جنسه، بل بحقائق حياته قبل النشأة

الأولى، وقد وجدوا في الآثار الأدبية صورا عليا وأصداء لأساطير عريقة

تتردد في حياة البشر.

وما دام الأدب كله - أو كثير من تصوراته - مستمد من المنطقة الغيبية

التي لم تكتشف (اللاشعور) فإن النقد عندئذ هو "اكتشاف المنطقة الأعمق في

الروح بحثا عن ميتافيزيقية الشعر"^٨.

٤- يرى فرويد وأتباعه أن الأدب تعبير مقنع، وأنه تحقيق برغبات مكبوتة قياساً على الأحلام، وهو يحتوي على "معنى ظاهر" وعلى "معنى مضمّر" تماماً كالحكم، إنه انعكاس لنفسية الكاتب لبواعث لا يشعر بها، وهو يعد كتابته، وإن تحليل "المعنى المضمّر" لكتاب ما يحدد تماماً التحليل النفسي ويبدو الأدب- في هذه الحالة- وكأنه رمز للبرغبات المكبوتة في اللاشعور، والعمل الفني إشارة أو رمز يقوم شعور الفنان، وهو بهذا يمكن أن يعد إشارة مزية بالنسبة إلى الفنان نفسه، الذي يصير- بعد أن يتم العمل الفني، فرداً متذوقاً مستمتعاً أكثر منه مبدعاً⁹.

وفي ضوء ما تقدم ينظر المنهج النفسي إلى الصور الأدبية على أنها رموز تنفص عن خبات نفس مضر تحيل على اللاوعي، وعلى ما في النفس المبدعة من عقد ومركبات وحضارات.

٥- اختلف علماء المنهج النفسي في تحديد الغاية من الأدب، أي الحث على الأخلاق والدعوة إلى الفضيلة، والاتجاه الحسن، والسلوك الحميد، أم أنها ما يؤديه الأدب للمجتمع، من خدمات اجتماعية؟.

يجيبون عن ذلك، بأنه لا الأخلاق، ولا الخدمات الاجتماعية، بل هي كل دواعيه وبواعثه ولكنها على أية حال تمثل عنصراً واحداً من مجموعة الدوافع، وليست هي كل الدوافع. إذ إن الأدب في الحقيقة تنظّم لعدة دوافع تنظّم لشعر إزاءه بنوع من التسامي هو المقياس الحقيقي لجودة الأدب وهو أوسع دائرة من أن نعيش بقم خلفية خاصة. وعلى هذا فالأدب يرضي فينا حاجات أعمق من أن تكون أخلاقاً أو رغبات اجتماعية محدودة¹⁰.

ومن خلال هذه الآراء والقواعد نلاحظ أن النقد النفسي هو نقد تفسيري، لا يعني بتحليل العمل الأدبي، وبيان قيمته الفنية والجمالية، ولكنه يعني بتفسير واستنباط الدلالات النفسية فيه.

موقف النقد العربي من المنهج النفسي

وقف العرب عند تفسير عملية الإبداع، فقالوا إن الإلهام من بواعثه، ولكل شاعر شيطان يلهمه القول، ويوحى إليه الشعر، وما الإلهام إلا الشيطان رمزوا به إليه، وجعلوه يقف وراء لسان الشاعر يقذف إليه بساحر القول وبديع الكلام.

ولهذا فإنهم عند ما وقفوا ذاهلين أمام الإعجاز البياني للقرآن الكريم، نفى الله سبحانه وتعالى عن القرآن ما قد يدور في أذهانهم من هذا الاعتقاد فقال: "وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون"¹¹.

وقد سجل الشعراء هذا الاعتقاد في أشعارهم، وفاخر الواحد منهم الآخر بشيطانه، وما له من قدرة عجيبة خارقة، لا يدركها شيطان من يفاخره، وإذا أدركنا أن الفخر يحتل مكانا بارزا لدى القبائل العربية، عرفنا أنهم وصلوا فيه إلى درجة الافتخار بالاستعداد الفطري والموهبة والإلهام، وما يتفوق فيه كل عن الآخر من هذه الأصول وهذا واحد منهم يفتخر بأن شيطانه ذكرا وشيطان الآخر أنثى، وليس الذكر كالأنثى:

إني وكل شاعر من البشر ** شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
وآخر يفتخر بأن شيطانه رئيس الجن، فهو بالتالي كبير الشعراء:
إني وإن كنت صغير السن ** وكان في العين نبوغ عني
فإن شيطاني كبير الجن ** يذهب بي في الشعر كل فن
حتى يزيل عني التظني¹².

والعرب ليسوا فريدين في نسبة الإلهام إلى باعث عملية الإبداع، فقد سبقهم إلى ذلك اليونانيون كما أن الباحث النفسي فرويد ارتكز على "التسامي" كأساس في عملية الإبداع، والتسامي عند فرويد هو استبدال الهدف السبقي أو تحويله إلى أهداف جديدة أرفع قيمة من الناحية الاجتماعية، ومجردة عن الغايات الجنسية يؤدي التسمي عندئذ إلى إظهار العبقرية والامتياز، ويميل الفنان إلى التشبع أو التنفيس أو إلغاء التوتر¹³.

ومعنى هذا أن مفهوم المنهج النفساني، قديم قدم الأدب العربي، وكان لم ينبع فيه العلماء المشهورون إلا في العصر العباسي حيث بدت ملامح التطور والتجديد تؤثر في الحياة الأدبية وغيرها. فابن قتيبة - مثلاً - طرق بعض النواحي النفسية في قضية البناء الفني للقصيدة الجاهلية وقال:

سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربيع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحو القلوب، ويعرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لانتط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل واللف النساء¹⁴.

فابن قتيبة هنا يرى أن الشعر استجابة لدواعي نفسية معينة يتحكم الزمان فيها والمكان كما نجد بعض المظاهر النفسية في موقف القاضي الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" حيث يقول:

وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر. ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة¹⁵.

فالقاضي الجرجاني يتكلم هنا عن اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، التي تؤدي إلى صلابة الشعر، أو ركاكته وتحدد سهولته ووعورته، وهذا يمثل جوانب المنهج النفساني.

ومن الذين بدرت منهم إشارات إلى المنهج النفسي، من علمائنا القدامى "أبو هلال العسكري" و"عبد القاهر الجرجاني" و"أبو الفرج الأصفهاني" في مؤلفاتهم المختلفة "كالصناعتين" و"أسرار البلاغة" و"الأغاني".

أما العصر الحديث فقد اتسعت مفاهيم الدراسات النفسية المفسرة للأدب وتعددت اتجاهاتها، ويرى الناقد أحمد كمال زكي أن "نقادنا العرب أبوا إلا أن يتعرفوا على المدارس النفسية في ضوء ثقافتهم الجديدة المتطورة، وبدأ أن تأثير التحليل النفسي على الأدب العربي الحديث كبير للغاية، واستطاع الكتاب الرومانسيون وأصحاب الكلاسيكية الجديدة أن يجدوا لدى فرويد وأدلر وغيرهم مجالاً لاهتماماتهم النقدية"¹⁶.

ويعد عباس محمود العقاد من أوائل المهتمين بالاتجاه النفسي في تفسير الأدب، فقد تناول عدداً من الشعراء بالدرس والتحليل في كتابه عن "ابن الرومي" و"أبي نواس"، إذ حاول أن يتعرف على شخصية الشاعرين من خلال الشخصية الباطنية عند كل واحد منها، فهو يكشف عن نفسية ابن الرومي من شعره، ويرتكز في تحليله لشخصية أبي نواس على أساس الزرجسية. ويجد المتتبع لآثار العقاد الأدبية إنه ارتكز في منهجه النفسي على "العقد" و"الطبائع" و"أثر البيئة" و"المذهب السلوكي" واهتم أيضاً "بالأزمات النفسية" و"الاجتماعية" و"التاريخية" التي تؤثر في خلق عملية الإبداع الفني مما يجعله بحق ناقداً نفسياً مهد الطريق أمام من جاء بعده من النقاد النفسيين.¹⁷

ومن النقاد الذين ساروا على المنهج النفسي في دراساتهم الأدبية الأستاذ أمين الخولي، وقد نشر فصلاً في المجلد الرابع من الجزء الثاني من مجلة كلية الآداب سنة 1939م، بعنوان "البلاغة وعلم النفس"، وله كتابه أسماه "رأي في أبي العلاء" ومن هذا الكتاب نلمس أن الخولي، يعد ركناً قوياً للمنهج النفسي بعد العقاد، فقد دعا إلى كشف بعض جوانب التجربة الفنية من طريق التحليل النفسي، ومن النقاد الحديث في هذا المنهج "الدكتور محمد خلف الله" الذي يعتبر كتابه "من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده" من الكتب التي أصلت هذا

الاتجاه في النقد المعاصر، فقد ذهب إلى أن هناك العلاقة القوية التي تربط الأدب بعلم النفس وقال:

وليس أعلم ذلك من أن يحاول الباحث وضع تعريف علمي للأدب إذا لا يلبث إلا يربطاً تبدو له ناحيتا الذوق والنفس في مكانها الجوهري¹⁸.

ومن النقاد ذوي الاتجاهات النفسية في دراسة الأدب ونقده الدكتور طه حسين الذي سار على هذا المنهج في بعض كتبه أمثال "مع أي العلاء في سجنه" و "صوت أي العلاء" ولا شك أن الدكتور طه حسين عند ما يتناول بعض الجوانب النفسية في حياة أي العلاء، إنما ينقل لنا صورة شخصية أحس الآمها، وشعر بمعاناتها، ومن ثم فإنه خير من يفهم شخصية المعري ويدرك بواعثها.

وقد انتفع الدكتور طه حسين بالمعارك النفسية في حدود إضاءة النص الأدبي وفهمه، ودلالته على شخصية صاحبه. إذ دراساته عن المتنبي وأي العلاء وغيرها تؤكد ذلك¹⁹. ومن أعلام هذا المنهج في العصر الحديث الدكتور محمد النويهي صاحب كتاب "ثقافة الناقد الأدبي" سلك في هذا الكتاب نهج طه حسين، والعقاد، والمازني، فقد ساهم كل منهم بدور فعال في تثقيف الناقد. والكتاب في محوره الأساسي يحاور في جدية للإقناع بضرورة التسلح العلمي لدى الناقد، إلى تسلحه بالثقافة الأدبية، ويقصد بالتسلح العلمي الالتزام بالموضوعية في النظر إلى القضايا المطروحة على بساط البحث، بالإضافة إلى هضم معلومات عامة وذكية بعلم الحياة، وعلم النفس، والدراسات الإنسانية أو الانثروبولوجيا، وبما أن الأدب يمثل في رأي المؤلف "الثمرة العليا لتجارب الحياة الإنسانية" وإن هذه المعلومات تتناول الإنسان الذي هو مدار الأدب في النواحي البيولوجية والنفسانية والاجتماعية، فإن الناقد الأدبي في حاجة ملحة إلى هذه المعلومات لكي يفهم الأدب حق الفهم ويتذوق حق التذوق²⁰.

ومن النقاد المتحمسين لهذا المنهج الدكتور عز الدين إسماعيل الذي وضع مؤلفات كثيرة توصل العلاقة بين علم النفس والأدب وفق بصيرة واعية وثقافة. منها

كتابه: "الأسس الجمالية في النقد العربي" عام 1955م، "والأدب وفنونه" في نفس العام، وكتابه الذي أصدر عام 1962م، بعنوان "قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر" وكتابه الشهير "التفسير النفسي للأدب" عام 1963م، وفي هذه المؤلفات انتفع الناقد بالنظريات النفسية الغربية التي تفسر الأدب وفق نزعات باطنية، وترصد آثارها واتجاهاتها في تقويم النص الأدبي، فتحدث عن الذات والذات العليا متأثراً بما قاله فرويد في ذلك، كما عرض لبعض المظاهر النفسية كالكتب، والأحلام، والغرائز، والنوازع الجنسية التي تحكم مسار الأديب حياة وفناً²¹. ومما يؤكد لنا سيطرة هذا المنهج النفسي على ما عده من المنهج في العصر الحديث كثرة المهتمين به أو كثرة الدراسات حوله منها:

- بشار بن برد للمازني، وكذا دراساته عن المتنبي، وأبي العلاء التي نشرت في "حصار الهشيم" و"قبض الريح" و"خيوط العنكبوت".
- "الأسس النفسية للإبداع الفني" لمصطفى سوييف.
- "رأي في أبي العلاء" لأمين الخولي.
- دراسات د. إسماعيل أدهم، عن توفيق الحكيم، و خليل مطران، وغير ذلك من الدراسات الأدبية التي تتجه اتجاهها نفسياً في النقد الأدبي.

أثر المنهج النفسي في النقد العربي النيجيري

يقول الدكتور سيد قطب إن علماء التحليل النفسي لم يقصدوا أولاً إلى إيجاد منهج نفسي للنقد الفني، إنما رأوا أن العمل الفني صورة من صور التعبير عن النفس، فدرسوه على هذا المنهج فهم فريق من نقاد الأدب، أرادوا أن ينتفعوا بما كشفتته الدراسات الفنية وبخاصة في ميدان التحليل النفسي²². وهذا القول أشبه ما كان عليه نقاد الأدب العربي في نيجيريا لأنهم لم يلتجئوا إلى هذا المنهج من أول الوهلة، ولم يدرسوه في مؤلفاتهم المختلفة بالتعمق كما فعل النقاد في العصر الحديث، ذلك لأن هدفهم في الدراسات النقدية يختلف أحياناً عن أهداف العقاد وطه حسين ونحوهما. أما الذين بدت ملامح المنهج النفسي في مؤلفاتهم من أبناء هذه البلاد

فإنهم تأثروا فقط بدرسات أخذوها من الغرب أو الشرق، وانتفعوا بهذه الدراسات انتفاعا كبيرا في مؤلفاتهم الأدبية. ومما يبدو أن هذا المنهج النفساني ليس جديدا في كتابات القدماء من علماء هذه البلاد. وقد يوجد ملامح هذا المنهج في بعض كتبهم أمثال كتاب "تزيين الورقات" للأستاذ عبد الله بن فودي و "إنفاق الميسور" للسلطان محمد بلو و "مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية" للشيخ آدم عبد الله الإلوري ونحوهم. وفي نظرنا ينقسم هذا المنهج في أعمال علمائنا النقدية إلى ثلاثة أقسام:

الأول: هو الدراسة حول عملية الخلق والابداع، وبيان العوامل الشعورية وغير الشعورية التي تتشكل من خلالها، وأول من نبغ- فيما نعلم- في هذا الاتجاه من نقادنا الأكاديميين، هو البروفيسور محمد الأول أبو بكر، كان علما من أعلام النقاد النفسانيين في نيجيريا وخارجها، بما أسهم في المنهج في كتابيه "سيد قطب والنقد الأدبي" 1412هـ 1992م، و "محمد النويهي والنقد الأدبي" عام 1422هـ 2002م، وما نشره من عدة مقالات أمثال "الاتجاه النفساني في الدراسات الأدبية الحديثة من خلال بعض كتب محمد النويهي" هذا المقال عبارة عن ورقة قدمها البروفيسور في ندوة هيئة التدريس بقسم اللغة العربية جامعة بيرو كنو عام 1987م، وقد يركز المنهج النفساني عند البروفيسور محمد الأول أوبكر على آراء فرويد، ويونج، والنويهي في تفسيرهم لعملية الإبداع. فقد اهتم البروفيسور بتحليل الشخصيات تحليللا نابعا من استكشافات العوامل الوراثية والفردية والجماعية التي أثرت على الأديب، فإنه بالنسبة إلى هذه النظريات، لا يرى العيب في الإعجاب بالنفس، وفي استشهاد صاحب الشعر أو النثر بما دمجته يراعته حسب ما فعل كل من ابن الأثير في كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" والدكتور سيد قطب في كتابه "النقد الأدبي أصوله ومناهجه" فإن البروفيسور في هذا الصدد استعمل علم النفس في معالجة نفسية الدكتور سيد قطب الذي عاب عليه بعض النقاد حول إشاداته الدائمة بما عمل وما سيعمل ولهذا قال:

ولكن الإعجاب بالنفس إذا كان ينقصه المستند الصحيح فإنه لا يكسب صاحبه إلا النزرة الشذراء، ولا شك أن الإعجاب بالنفس الذي لاح لنا في بعض كتابات سيد قطب لا يخلو من مستند قوي، وبعيدا عن التعليل النفساني لهذا الإعجاب، فليس من المستبعد أن يكون مصدره شعوره بأنه عصامي استطاع بالجد في الدرس والتحصيل أن يكتسب ثقافة واسعة وعميقة بالتراث العربي والإسلامي، وبالفكر الغربي في جوانبه المختلفة عن طريق الكتب المترجمة.²³

هذا الاقتباس يمثل لنا خلاصة تكوين شخصية سيد قطب الإنسانية والعلمية، والناقد عندما يتكلم عن عوامل البيئة وأثرها في تربية سيد قطب وثقافته أخذ يستخدم علم النفس في إقناع القارئ أن يربط بيئة الدكتور سيد القطب ببعض كتبه التي تتسم بسممة الإبداعات منها: "طفل من القرية" و"أشواك" و"وسوسة الشيطان". ونحو ذلك ويذهب إلى انضمام الدكتور سيدقطب إلى "جمعية الإخوان المسلمين" وتربيته الأولى مما أثر في حياته الأدبية، وقال:

الرؤية الإسلامية للأدب عند سيد قطب تبدأ بعد تجربته الإسلامية الضخمة على ما فصلنا عن انضمامه إلى "الإخوان المسلمين" صحيح أن بعض أعماله الإبداعية والنقدية لم تخل من التأثير بالرؤية الإسلامية بعامل تربيته الدينية الأولى في البيت ثم ثقافته الدينية. ولكن معالجته المعتمدة للأدب من منظور إسلامي وهي على جانب كبير من الأهمية رغم قلتها. إنما جاءت بعد تلك التجربة.²⁴

على رغم من أن هذا التحليل كان على أساس المنهج النفساني بوجه عام وعلى تأثير البيئة والثقافة في الأديب بوجه خاص إلا أن البروفيسور محمد الأول أبو بكر يشير إلى أهمية الدين الإسلامي في حياة الدكتور سيد قطب المختلفة، وهذا يستطيع القارئ أن يلاحظ العلاقة التي بين الأدب وعلم النفس، وتلك العلاقة

تمثل كثيرا في التصور النقدي عند الناقد، لأن الأدب عنده هو "تعبير عن مشاعر الإنسان نحو تجاربه ومواقفه أو التأمل في محيطه. فإن هذا يتطلب من الناقد التسلح بالثقافة العلمية، ومن بينها علم النفس. وسبب هذا يرجع أولا إلى رهاقة الأديب، تلك الرهاقة التي تؤهله لاستكشاف حقائق تتصل بظواهر الحياة، ويرجع ثانيا إلى التعبير الأدبي ذاته يتأثر بالتكوين الجسادي العاطفي والعقلي عند الأديب، الأمر الذي قد لا يعيه الأديب نفسه وعيا كاملا. وفي كلتا الحالتين فإن الثقافة العلمية هي التي تكسب الناقد فهما صحيحا وكاملا لمثل هذا المسائل. وعلى هذا فإن الثقافة الأدبية وحدها لا تكفي الناقد بل لابد أن يضم إليها الثقافة العلمية، وكلا من الثقافة سلاحان ضروريان للناقد لأنه من الخطأ أن يتصور الإنسان وجود حاجز بين الملكين العقلية والجسمية"²⁵.

ومن خلال هذا نفهم أن البروفيسور محمد الأول لم يقف في نقده عند التحليل النفسي فقط، بل تابع رأيه في ضرورة تحديد وظيفة الأدب والأديب تجاه المجتمع الإنساني، وهو هنا على نهج أستاذه الدكتور محمد النويهي الذي يرد على علماء الجمل الذين يجعلون للأدب غاية جمالية محضة، معزولة عن الغايات الأخرى²⁶. ومما لا يخفى أن الناقد لا يكتفي بالمنهج النفسي وحده بل يسلك في بعض الأحيان المنهج التكاملي حسب ما فعل في كتابه "محمد النويهي والنقد الأدبي" وقد صرح القول في ذلك عند استعراضه لأبواب الكتاب في المقدمة:

كانت طريقة المعالجة لهذه الأفكار تكاملية بحيث لا ينقسم الجانب النظري عن الجانب التطبيقي بل يسلط أحد الجانبين الضوء على الآخر.

والذي يبدو هو أن معلومات الناقد البروفيسور محمد الأول الأدبية والعلمية ساعدته في تمييز بين المناهج النقدية الحديثة. وإن كان كثرة استخدامه للمنهج النفسي في دراسة الدكتور سيد قطب، يرجع سببا - عندنا - إلى إيجاد بعض شذوذ في شخصية سيد قطب، أو إلى الفارق المكون بين سيد قطب ومحمد النويهي.

وأما النوع الثاني: فهو تفسير النص الأدبي من خلال الحياة الخاصة لمؤلفه بحيث يحاول الناقد التقاط ما أمكنه من جزئيات السيرة الذاتية أو المواقف الشخصية والعلمية للمؤلف، وغير ذلك مما يعين الناقد على الكشف عن أسرار كتابته وأقواله وتفسيرها، وتحليل نفسية الكاتب من خلالها، إيماناً منه بانفتاح آثاره عن طبيعته وشخصيته.²⁷

ولأن العمل الأدبي انعكاس شخصية صاحبه فإنه مادة هامة يسير بها أغوار نفسيته. وهو يفترض - كما يذهب دي لورانس - إلى أن الكاتب يسكب مرضه في كتبه، والناقد عندئذ يبدو محللاً، يتخذ الفن كالعرض المرضي، ويستطيع بتعليقه وتفسيره أن يكتشف مكنونات الفنان اللاشعورية ودوافعه، ويمكن أن تؤدي هذه الاكتشافات بدورها إلى فهم العمل الفني، بل تفسيره نفسية.²⁸

وعلى هذا الضوء سار نقادنا النيجيريون في درس حياة المؤلفين إذ وقفوا عند أعمال بلادهم العربية أو الأدبية لتفسير نفسية أصحابها واستعملوا في فهم هذه الأعمال الوسائل العلمية المختلفة منها علم الحساب، والفلك، والتنجيم، والكيمياء، والفيزياء، ونحو ذلك. ومن النقاد الذين سلكوا هذا المسلك واستخدموا العلوم الميكانيكية في النقد الأدبي الدكتور حامد إبراهيم أولانغنجو الذي اعتمد على علم الحساب في تفسير نفسية الشيخ آدم عبد الله الإلوري وقال:

أقول إن الشاهد في ذلك إنما هو الأفكار من الغير التي تأتي بما يخالف ما قاله الشيخ من الحق، وذلك لمعرفته أن الحق لا يختلف أبداً، فمثلاً إذا قال واحد: اثنان مع اثنين (2+2) يساوي أربع (4) وزاد قائلاً: "وإني أرحب بأي واحد غيبي يجمع بين العددين المذكورين ويأتي بنتيجة غير التي ذكرتها، أقول لك يا أخانا هل هذا يعني أن القائل يظن أن غيره لن يستطيع الجمع بين العددين، ويحصل على نتيجة صحيحة؟ طبعاً: لا بل المفهوم الصحيح الذي يوافق المقصود أنه يعلم أن أية نتيجة صحيحة لا تخالف نتيجته، فقول الشيخ بأنه يرحب بتأليف غيره. إن دل على شيء فإنما

يدل على الإقرار أن لغيره وسعا وطاقة في التأليف، أما قوله في
تمة الجملة على الطريقة التي يرضيها أهل العلم والمنطق والبيان
والبرهان وهذا أيضا كلام صحيح لا عيب فيه ولا يعاب عند
بصير ناقد صحيح النية، لأن الشيخ جعله شرطاً للترجيح
بالتأليف والقبول وذلك لعلّمه أن تأليفات كثيرة منها ما يكون
فضولاً لا يتفق مع الحق"²⁹.

ولا شك أن الدكتور حامد أولانغنجو استطاع أن يقدم محاولاته المثمرة
في إيجاد الصلة بين أدبنا العربي وعلم النفس. فهو يرى أن ذلك الأدب حفل
بالملاحظات النفسية الكثيرة، وبالنزعات المنطقية الكثيرة، ولعل كثرة القراءة
والترجمة من العربية إلى الإنجليزية أو بالعكس هي عامل أساسي في الدراسة
النفسية لدى هذا الدكتور.

والنوع الثالث: يدور حول النص والمتلقي حيث يتجه الدرس على
البحث عن صلة العمل الأدبي بالآخرين، وتأثرهم به، ويحتد أصحاب هذا الاتجاه
في الإجابة على ذلك السؤال الذي طال به العهد، وهو "لماذا يستثيرنا الأدب؟
فيقولون: إنه يستثيرنا بأن يقدم في شكل رمزي غالبية رغباتنا الأساسية، بمعنى أن
القارئ يعيش مرة أخرى أهم تجاربه الخاصة بمساعدة الرموز الشعرية"³⁰، والفرق بين
هذا وسابقه هو أن هذا يركز كثيراً على سيكولوجية القارئ على نحو ما يركز
السابق على سيكولوجية المؤلف. وكان الدكتور حمزة عبد الرحيم من أفضاذ نقادنا
الدارسين للنص والمتلقي في أعمالهم النقدية فلقد سلط ضوءاً على العلاقة بين النحو
والبلاغة وخاصة فيما بين حرفي "ليس" و"لعل"، والمعلوم أن الحرف الأول، من
أخوات كان، والحرف الثاني من أخوات إن يدخلان على المبتدأ والخبر، فالأول
يرفع الاسم وينصب الخبر، والثاني ينصب الاسم ويرفع الخبر.

تصدى الناقد لمناقشة هذه المسألة عندما تكلم عن الظواهر
السيكولوجية التي توجد في علم المعاني، أو الخبر والإنشاء حسب ما في كتاب

"البيان" للبروفيسور عبد الرزاق ديريني أبوبكر، ولقد أراد الدكتور حمزة عبد الرحيم أن يلاحظ سيكولوجية القارئ في هذا الكتاب وقال:

على الرغم من العلاقة القوية بين النحو والبلاغة خاصة علم المعاني، والأخص الخبر والإنشاء فإن منهج النحو يختلف عما تهتم بها البلاغة في اللغة العربية. أما لو نظرنا إلى النظريات اللغوية الحديثة خاصة تلك التي وضعها العالم اللغوي الأمريكي تشومسكي في نظرية النحو التحويلي فإن محاولة الفصل بين النحو والبلاغة ليست عملية سهلة، ذلك أن النظرية التحويلية تؤكد أن هناك معنيين لتركيب لغوي وهما المعنى الظاهر والمعنى الباطن، وبينما يعني التركيب الظاهري بالشكل الذي يهتم به علم النحو، فالتركيب الداخلي يتعلق بعلم المعاني³¹.

ومن هنا نجد أن نظرية الدكتور حمزة عبد الرحيم أقرب جداً إلى نظرية النص والمتلقي عند النقاد النفسانيين، لأنه استطاع أن يربط الصلة بين البلاغة والنحو وعمل الآخرين كما حاول الربط بين تأثير الشرق العربي بالغرب أو بالعكس في النظرية اللغوية، ذلك لإثارة عاطفة القراء نحو الموضوع.

الخاتمة:

يتضح لنا فيما سبق أن المجهودات التي بذلها علماء نيجيريا نحو تطبيق المنهج النفسي على النقد العربي، لا تقل شأنًا عن المجهودات التي بذلها النقاد العرب المعاصرون في نقد الأدب العربي الحديث، لقد انتفع علماء نيجيريا في تطبيق هذا المنهج بما كشفتته التحليلات النفسية في العمل الأدبي، فظفروا حيناً إلى الخلق والابداع، وتارة إلى تفسير النص الأدبي، ومرة إلى النص والمتلقي، وقد ربطوا هذه النظريات بعلم النفس والمنطق والحساب، ولا نبعد من الصواب إذا قلنا إن الدراسات الانجليزية والإبحاءات التربوية من العوامل الهامة التي أثرت في نقادنا النيجيريين الذين كانت لهم الاتجاهات النفسية في النقد العربي.

هوامش البحث

- 1- مطلوب، أحمد: في المصطلح النقدي ط 1، مطبعة المجمع العلمي، بغداد 2002م ص 14.
- 2- عازل، حسن محمد حسن: البحث الأدبي أسسه ومناهجه، مكان النشر وتاريخه غير مذكورين، ص: 77.
- 3- قصاب، وليد: مناهج النقد الأدبي الحديث (رؤية إسلامية)، ط 1، دار الفكر، دمشق، ص: 52.
- 4- عازل، حسن محمد حسن: المرجع السابق، ص: 78.
- 5- المرجع نفسه، ص: 79.
- 6- قصاب، وليد: المرجع السابق، ص: 62.
- 7- المرجع نفسه، ص: 63.
- 8- المرجع نفسه، ص: 64.
- 9- المرجع نفسه، ص: 65.
- 10- عازل، حسن محمد حسن: المرجع السابق، ص: 81.
- 11- أبو كريمة، طه مصطفى أبوبكر: أصول النقد الأدبي، الطبعة الأولى مكتبة لبنان ناشرون، 1996م، ص: 148.
- 12- المرجع نفسه، ص: 149.
- 13- الحاوي، إبراهيم: حركة النقد الحديث المعاصر، الطبعة الأولى 1404هـ- 1984م، مؤسسة الرسالة، ص: 105.
- 14- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق شاكر، ط 3، دار المدني، القاهرة، 1977م، ص: 74-75.
- 15- القاضي الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتنبئ وخصومه، تحقيق وشرح محمد أني الفضل إبراهيم وعلي محمد البخاري، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1966م، ص: 16.
- 16- الحاوي، إبراهيم: المرجع السابق، ص: 196.
- 17- المرجع نفسه، ص: 106.

- 18- قطب، سيد: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط ١، غير مؤرخ، دار الشروق، ص: ١١٢.
- 19- الحاوي، إبراهيم: المرجع السابق، ص: ١٠٧.
- 20- عازل، حسن محمد حسن: المرجع السابق، ص: ٨٧.
- 21- الحاوي، إبراهيم: المرجع السابق، ص: ١١٢.
- 22- قطب، سيد: المرجع السابق، ص: ١٨٧.
- 23- أبوبكر، محمد الأول: سيد قطب والنقد الأدبي، ط ١، دار الرفاعي، الرياض، ١٩٩٢م، ص: ٣٢.
- 24- أبوبكر، محمد الأول: المرجع السابق، ص: ٦٩.
- 25- أبوبكر، محمد الأول: الاتجاه النفساني في الدراسات الأدبية الحديثة من خلال بعض كتب التوبيخ، ورقة قدمت في ندوة هيئة التدريس، بقسم اللغة العربية، جامعة بايروكانو، نوفمبر عام ١٩٨٦م، ص: ١١-١٢.
- 26- المرجع نفسه، ص: 13.
- 27- قصاب، وليد: المرجع السابق، ص: ٥٩.
- 28- المرجع نفسه الصفحة نفسها
- 29- أولاغنجو، حامد إبراهيم: ضياء القراء على صفحات كتاب أضواء، الطبعة الأولى، *Al-Madinat Heritage publication, Lagos*، غير مؤرخ، ص: ٥.
- 30- قصاب، وليد: المرجع السابق، ص: ٦٠.
- 31- عبد الرحيم، حمزة إيشولا: المؤلفات البلاغية لعلماء يوربا: عرض وتقييم، نثاقس، *journal of the Nig association of teacher of Arabic and Islamic Studies, Vol 6, N3 Sept 2003*، ص: ٩.